أعلام القضاء في الإسلام

تأليف
دكتور
محمد ابراهيم الجيوشي

الناشر
دار النهضة العربية

دار الاتحاد العربي للطباعة
لصاحبها : محمد عبد الرازق
١٩ كنيسة الأرمن ش الجيش
تليفون : ٩٢٤٠٩٨

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمد الله تعالى حمدا يوازى نعمه ونسأله الهداية والتوفيق ونصلى ونسلم على خيرته من خلقه سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والسائرين على هديه والمتبعين طريقه وبعد

فإن العدل أساس الملك ، والحكم بين الناس بالحق سبيل الأمن والفلاح ، ولهذا أوصى الله سبحانه نبيه داود أن يحكم بالحق فقال : ياداود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق . ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله .

وقد حث النبى صلى الله عليه وسلم المسلمين على أن يلتزموا جانب العدل سواء كانوا محبين أو مبغضين وسواء كانوا راضين أو مغضبين حيث جعل التحكم فى عاطفة الغضب والرضى والتعالى على نزعتى الحب والبغض علامة من علامات استكمال الإيمان حين قال : أربع من كن فيه فقد استكمل الإيمان العدل فى الرضى والغضب والحب والبغض ... »

ومن قبل ذلك كانت دعوة القرآن الكريم جلية واضحة بأن لا يكون للحب والبغض أثر فى توجيه الحكم بين الناس حيث قال : ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ، لأن ذلك هو الطريق الذى يأمن الناس فيه على دمائهم وأموالهم وأعراضهم .

والتاريخ الإنسانى كله شاهد على صدق هذه الحقيقة التى حرص الإسلام على إرساء قواعدها وتثبيت دعائمها ، فأيما دولة تمسكت بالعدل وحرصت على إعطاء كل ذى حق حقه عز جانبها وعلت كلمتها وسادت بين الأمم بما هيأت لأفرادها من حق الإنسان فى الأمن على عرضه ونفسه وماله ، وأيما أمة تهاونت فى الأخذ بمبدأ العدالة بين أفرادها واختلفت موازين العدل فيها تبعا لما للمرء من جاه أو سلطان انحطت مكانتها وضعف شأنها وتناوبتها الأمراض الاجتماعية الفتاكة

من سوء فى الخلق واعوجاج فى السلوك ، وانتشار مظاهر الضعف والفساد من رشوة وإهدار للقيم وضياع للمثل وغمط للحقوق وهوان الأفراد وتغلغل للفساد فى كل مرافقها حتى ينهار بنيانها وتضيع كلمتها وتحل بها الكوارث وفى هذا مصداق لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد » ، ومن هذا المنطلق ندرك سر غضبته صلوات الله وسلامه عليه من أسامة حينما جاءه شافعا فى قضية المرأة المخزومية التى سرقت ، وخشى أهلها من العار الذى يلحقهم لو قطعت يدها فاتجهوا إلى إسامة يطلبون إليه أن يتشفع عند رسول الله ليعفيها من إقامة الحد عليها ، فظهر الغضب على وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال أتشفع فى حد من حدود الله ، والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها .

وكان رسول الله صلواته وسلامه عليه حريصا كل الحرص على أن يأمن كل امرئ على نفسه وماله وعرضه ، ويأخذ كل ذى حق حقه ولهذا كان يوصى من أرسله للحكم بين الناس أن يتحرى العدل ويحرص على رد الحقوق لأصحابها ، ومن ذلك ماأوصى به معاذا لما بعث به إليه اليمن حين سأله : كيف تصنع إذا عرض لك أمر من الأمور ؟ .

قال : انظر فى كتاب الله فإن وجدته حكمت به .

سأل النبى صلى الله عليه وسلم فإن لم تجده فى كتاب الله .

قال : انظر فى سنة رسول الله فإن وجدته حكمت به .

سأله النبى : فإن لم تجده فى كتاب الله ولا فى سنة رسول الله ؟ .

أجاب : اجتهد رأيى :

فسر النبى من جوابه وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله . وكانت هذه سنة الخلفاء الراشدين من بعده عليه السلام ، حتى إن أبا بكر رضى الله عنه يعلن فى أول كلمة يلقيها بعد أن بويع له بالخلافة فيقول : القوى

فيكم ضعيف عندى حتى آخذ الحق منه والضعيف فيكم قوى عندى حتى آخذ الحق له :

وكانت وصية عمر لشريح لما بعثه قاضيا تدور فى نفس المحور الذى يحرص على رد الحقوق لأصحابها فقال له : ما استبان لك من كتاب الله فلا تسأل عنه، فإن لم يستبن لك فى كتاب الله فمن السنة ، فإن لم تجده فى السنة فاجتهد رأيك .

واجمع ماروى فى هذا الباب كتاب عمر إلى أبى موسى الأشعرى، وفيه يقول: « أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، فانه لاينفع تكلم بحق لانفاذ له ، آس بين الناس فى مجلسك وفى وجهك وقضائك حتى لايطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك ، البينة على المدعى واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا ، ومن ادعى حقا غائبا أو بينة فاضرب له أمدا ينتهى إليه ، فان بينه أعطيته بحقه ، وإن أعجزه ذلك استحللت عليه القضية ، فإن ذلك هو أبلغ فى العذر وأجلى للعماء ، ولا يمنعنك قضاء قضيت فيه اليوم فراجعت فيه رأيك ، فهديت فيه لرشدك أن تراجع فيه الحق ، فإن الحق قديم لايبطله شيء، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل ، والمسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجربا عليه شهادة زور أو مجلودا فى حد أو ظنينا فى ولاء أو قرابة ، فإن الله تعالى تولى من العباد السرائر ، وستر عليهم الحدود إلا بالبينات والإيمان ، ثم الفهم الفهم فيما أدلى إليك مما ورد عليك مما ليس قرآنا ولا سنة ، ثم قايس الأمور عند ذلك ، واعرف الأمثال ، ثم اعمد فيما ترى إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق، وإياك والغضب والضجر والتأذى بالناس والتنكر عند الخصومة فإن القضاء فى مواطن الحق مما يوجب الله به الأجر ويحسن به الذكر فمن خلصت نيته فى الحق ولو على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس ، ومن تزين بما ليس فى نفسه شانه الله ، فان الله تعالى لايقبل من العباد إلا ما كان خالصا ، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ، والسلام عليك ورحمة الله(١) .

---

(١) إعلام الموقعين جـ ١ ص ٧١ ، ٧٢ .

وهذه وثيقة جامعة تشرح للقضاة مسئولياتهم ، وتكشف عن الجوانب الدقيقة والهامة التى يجب أن يراعيها القاضى وهو فى منصة الحكم حتى لاييأس ضعيف من عدله ولا يطمع قوى فى جوره ، وكان الخلفاء يتحرون الدقة فى اختيار القاضى ويهتمون اهتماما بالغا بأخلاقه ودينه وسلوكه إدراكا منهم لعظم المهمة الملقاة على عاتقه ، بدا ذلك فى اختيار عمر رضى الله عنه لشريح وموقف على كرم الله وجهه من شريح أيضا وتتابع على ذلك الخلفاء الحريصون على إقامة العدل بين الناس .

وقد شهد تاريخ القضاء فى الإسلام أعلاما برزوا فى تاريخ القضاءوضربوا أروع المثل فى نزاهة القاضى واستقلاله ووقفوا ضد رجال الدولة وأشياعهم الذين سول لهم قربهم من السلطة أن يتدخلوا فى شئون القضاة ، ويؤثروا فى طبيعة الأحكام التى يصدرونها ، ولكن القضاة تصدوا لهذا اللون من التدخل وواجهوه بحزم وعزم وقوة جعلت رجال الحكم يتراجعون أمامهم ويخضعون لأحكامهم وينزلون على إرادتهم ، وفى سيرة هؤلاء الرجال الذين عرضناجوانب من حياتهم وأقضياتهم صورة حية للصلابة التى يتحلى بها القاضى ، والوقوف فى جانب الحق مهما تكن النتائج .

ولا شك أن نمو المجتمع الإسلامى وازدهاره الحضارى كان نتيجة طبيعية لسيادة مثل الحق والعدل التى أرسى الإسلام قواعدها ، وسهر القضاة على رعايتها وتنفيذها أخذا بحق المظلوم وردعا للظالم حتى يعلم أن ليس هناك أحد يحميه من الحق إلا الحق نفسه .

وقد ألف علماء المسلمين العديد من الكتب فى أدب القضاءوأحكامهومايتصل . وكان هناك باب ثابت فى كتب الفقه الإسلامى على اختلاف مذاهبها يتحدث عن القضاء وما يتصل به من قوانين وأحكام ، ذلك لأنه جانب من جوانب الحياة التى يحتاج إليها الناس فى معاشهم ومعادهم .

وقد لفت انتباهى أثناء مطالعاتى مواقف الكرامة التى سجلها القضاة فى الإسلام ، فأحببت أن أقدم هذه النماذج المضيئة للجيل الجديد من أبناءأمتنا التى

اختلطت فى عقله الموازين وكاد يسىء الظن بتاريخ أمته وعظماء رجالها نتيجة لما يرى حوله من ضياع للقيم وإهدار للمثل العليا ومبادىء الأخلاق . لعل هذه النماذج تعيد إليه الثقة الضائعة وتدفع عنه الحيرة القاتلة ، وتدفعه إلى أن يعيد للتاريخ أمثال هذه النماذج حينما تسند إليه مقاليد الأمور فى مستقبل الأيام .

والله من وراء القصد وهو ولى التوفيق ؟

د . محمد ابراهيم الجيوشى

ذو الحجة ١٣٩٨ ﻫ

نوفمبر ١٩٧٨ م